

الأنساق الثقافية في السرد الصحراوي - روايات الزبواني أنموذجا

Cultural Patterns in the Saharan Narrative - Ziواني narratives as model

*بوعلام صماري

جامعة بومرداس، b.semmari@univ-boumerdes.dz

سامية عليوات

جامعة بومرداس، s.aliouat@univ-boumerdes.dz

تاريخ النشر: 2024/12/27

تاريخ القبول: 2024/05/21

تاريخ الاستلام: 2023/12/28

ملخص: تركز هذه الدراسة المعنونة بالأنساق الثقافية في السرد الصحراوي - روايات الزبواني أنموذجا على تعرية المضمر الثقافي في الخطاب الروائي الجزائري، وتسليط الضوء على مقولات النقد الثقافي كأداة معرفية تستخدم لخلخلة وتقويض العقل الإمبريالي الذي يعمل على تأييد الهيمنة على النسق الهامشي، كما تتناول الدراسة العلاقة المتنازعة بين الأنساق المتضادة والمتناقضة والمتوافقة في الرواية على ضوء منهج الوصف والتحليل، وتسعى إلى تحليل تلك العلاقة وتوضيح كيفية تمثيلها في النص الروائي، من خلال استخدام المقولات النقدية الثقافية لكشف التوترات والتناقضات بين الثقافات المختلفة وتحليل الديناميكيات الثقافية والسياسية التي تتلاقى في الرواية، بالتركيز على هذه المقولات النقدية الثقافية؛ حيث تهدف الدراسة إلى تقويض الهيمنة الثقافية وتحرير العقل من الاستعمارية والإسهام في الترويج للتنوع والتعددية في الخطاب الروائي الجزائري، من خلال تحليل العلاقات المتنازعة والمتناقضة والمتوافقة بين الأنساق الثقافية المختلفة، حيث يتم تسليط الضوء على التحديات والمشكلات التي تواجهها الهوية الجزائرية عموما والصحراوية خصوصا وتمثيلها في الأدب.

كلمات مفتاحية: الصحراء، الأنساق الثقافية، السرد الصحراوي الجزائري، الهامش والمركز، الأنا والآخر.

Abstract:

This study focuses on exposing the cultural content in the Algerian novelist discourse, and shedding light on the categories of cultural criticism as a cognitive tool used to disrupt and undermine the imperialist mind that works to support hegemony over the marginal system. The study deals with the conflicting relationship between the opposing, contradictory and compatible patterns in the novel, and seeks to analyze that relationship and clarify how it is represented in the fictional text, through the use of cultural critical statements to reveal tensions and contradictions between different cultures and to analyze the cultural and political dynamics that converge in the novel, focusing on these critical statements. cultural; The study aims to undermine cultural hegemony, liberate the mind from colonialism, and contribute to promoting diversity and pluralism in the Algerian novelist discourse, through analyzing the conflicting, contradictory and compatible relationships between different cultural patterns, highlighting the challenges and problems faced by the Algerian identity in general and the Sahrawi identity in particular and its representation in literature.

Keywords: The desert; Cultural patterns; Algerian novelist discourse; margin and center; self and other.

*المؤلف المرسل: بوعلام صماري، الإيميل: b.semmari@univ-boumerdes.dz

1. مقدمة :

بداية نذكر أنّ التاريخ الثقافي والتّجاذب الاجتماعي يرتبط بالمكان ربما أكثر من ارتباطه بالزمان، فعلاقة المجموعات البشرية بالمكان هي المحدّدة للزّمن وإذا اتّفقنا على أنّ مكان الرّواية بشخصها وأحداثها لا يتجاوز سقوف وجدران المدينة بما تحمله من تجاذبات تاريخية واجتماعية وثقافية، لم يستطع فيها الإنسان البوح بكل آماله وآلامه، فتبقى عدة شفرات عالقة دون حل؛ ليلجأ

الرّوائي الجزائري إلى فضاءات أخرى أكثر رحابة يُدعى من خلالها الروائيون العرب عامة وأبناء الجنوب الجزائري خاصة للكتابة؛ لأنهم الأقدر على التبحر في الصحراء كفضاء سردي جديد، فيفهم كل غريب عن هذه البيئة تضاريسها وطبيعتها وحضارتها وعمرانها ولغتها ودينها وأنثروبولوجيتها، إلى أن تطأ قدماه أرضها ويتحاور مع أناسها، وتحديثه طبيعتها ونخيلها وترتبتها الذهبية الطاهرة، ويجد ترحابا منقطع النظير، وأرواحا سامية لا تعرف إلا الصدق والصبر؛ وقد ذكر شاعر الثورة الجزائرية مفدي زكرياء الصحراء في إلباذاة الجزائر، وأحسن نعتها وهو ابنها البار بها، وأثنى عليها وعلى ما فوقها من بشر يتميزون بشمائل عظيمة وما تحمله في بطنها من خيرات زكية، وأنعامها التي وهبها الله؛ من غزلان وجمال، ونوق تعلّم الإنسان هناك الصبر والتوتّب نحو الأمل والحرية والعيش الكريم، ومن هذا المنطلق نطرح تساؤلات عدة من أهمها:

- ما علاقة الفضاء المدني بفضاء الصحراء؟ وكيف عبّر المتخيل السردى الجزائري عن تفاعله في المتن الروائي؟ وكيف عبرت الشخصيات السردية عن هويتها، وتراثها من خلال فضاء الصحراء؟ وكيف تجلّت المحمولات الثقافية والتاريخية، في المتخيل السردى الجزائري عبر فضاء الصحراء؟

2. التعريف بالرواية "مملكة الزيوان"؛ عنواناً ولغةً سرديةً:

يستخدم الرّوائي الصدّيق حاج أحمد الزيواني خطاباً سردياً متميّزاً يعتمد على تنوع ومرونة التعبير حيث يجمع بين الممارسة اللغوية والثقافية بهدف الإقناع والتأثير على القراء، كما يتبع الزيواني في رواياته لغة واضحة المعالم تستهوي المتلقي وتجذب اهتمامه؛ فحواسها ترغيب القراء وإثارة اهتمامهم من خلال استخدام لغة متقنة ومعبرة، ويقوم بتجسيد الأفكار والمشاعر والتجارب بأسلوب يجذب الانتباه ويثير الفضول، لأنّه يستخدم أساليب سردية متنوعة وتقنيات مفصلة لخلق تأثير دراماتيكي وتشويقي بالإضافة إلى ذلك يميّز الزيواني نفسه بالازدواجية اللغوية أو التعدد في المستويات اللغوية، فهو يجمع بين عبقرية اللغة العربية وتراثها التاريخي والثقافي ويدمجها بأسلوبه الخاص في الكتابة، كما يستخدم لغة متناقضة ومتعددة.

ينجح الزيواني في إثراء التجربة القرائية وتوفير تجربة ثرية ومتعددة الأبعاد، يحقق التوازن بين التعبير اللغوي والثقافي، ويعمل على تشكيل صورة فنية متميزة تترك انطباعاً قوياً على القراء، فالخطاب السردى للرّوائي الصدّيق حاج أحمد الزيواني في حقيقة الأمر يعتمد خطاباً متميزاً، حيث أن الطريقة التعبيرية التي يسلكها مرنة تجمع بين الممارسة اللغوية والثقافية قصد الإقناع والتأثير، تُعدّ فيه الرواية "مملكة الزيوان" وسيلة من وسائل التواصل، إذ تعتمد لغة واضحة المعالم تجذب المتلقي، كما يعمل من خلالها الرّوائي على ترغيب وإثارة اهتمام القارئ، دون أن ننسى أن الرّوائي الصدّيق حاج أحمد الزيواني قد زواج في لغة كتابته بما يسمى الازدواجية اللغوية أو ما يعبر عنه بتعدد المستويات اللغوية حيث ذكر شارلز فرجيسون في مقالته الشهيرة عام 1959 أن اللغة تعتمد مستوى أعلى (اللغة الفصحى) ومستوى أدنى (اللغة الدارجة؛ اللهجة العامية) ولكلّ منهما مواقف ووظائف خاصّة.

ولأنّ الرواية تعتمد شخوصاً بسطاء من عامة أهل القصور، نجد اللهجة العامية تطفئ في حواراتها وخطاباتها؛ لنجد أن الرواية أدقّ تعبيراً، وأكثر واقعية ومن أمثلة ذلك تضمينه الرواية أمثالا شعبية باللهجة العامية: "عش عش يا الباس"¹. وقوله أيضاً: "البت عندنا كي الرقبة موكولة أو مذمومة"². ويستعمل الصدّيق حاج أحمد اللهجة العامية في الشعر الشعبي الغنائي كقوله: "جيت مهودة لتوات... ألقيت الزعفة ما أبقات... أداها بوريشات..."³ على أن أغلب لغة الرواية بالفصحى. هذه المزاوجة اللغوية بين لغة العامة وفصحى القول أبرزت الرواية وأضفت عليها سحنة جمالية بارزة، كما عرفت بلهجة منطقة توات، اعتمد فيها الرّوائي على شرح ما يستغل على القارئ فهمه من لهجات توات، فيشرحه معتمدا بكثرة على مصاحبات الخطاب؛

وهي سمة بارزة في كتابات الصديق حاج أحمد الزيواني الذي يعتمد على اللغة الفصحى إذا ما روى التاريخ، ثم يتحدث بالعامية حينما يود إبراز ما علق بالحياة الاجتماعية لأهل الجنوب، هذه الأخيرة التي تطرب لها الآذان وتستقر في أعماق النفوس، فالرواية حقيقة توجه عادة إلى جمهور القراء والذين يجيدون الكتابة، من خلالها يتصور، فيصوّر تجربة إنسانية يعيشها الإنسان الصحراوي، وإذا ما سمنا ووصفنا الرواية نجد أنها ترصد الواقع المعاش بتصوير فني جمالي رائع، على أن لغة الرواية تتكلم على لغة أهل القصر وبالتحديد منطقة توات بولاية أدرار، حيث نجد لهجتهم تتميز بالفردية؛ ومن مميزات صعوبة النطق والغربة بعض الشيء ومن ذلك قوله: "في الطين أزردابي" أي الطين المبلل بالماء، وقوله: الدليق بنطق القاف جيما قاهرية؛ وهو عبارة عن ثوب صوفي يلبسه الأطفال الصغار، كما نجد قول الكاتب: أضنايتكم ويعني بها الأبناء، وقوله التسمار؛ ويعني به توزيع اللحم من اليمين إلى اليسار أثناء تقديم الوليمة... والأمثلة كثيرة

3. الجانب التاريخي والثقافي في الرواية:

في رواية "مملكة الزيوان"، يقوم الروائي "الصديق حاج أحمد" برحلة استكشافية في الصحراء تكاد تكون حقيقية، حيث يكتشف الأماكن والمناظر الطبيعية الصحراوية الحقيقية في مرابع توات بأدرار، كما يصوّر الزيواني عوالم غرائبية وغامضة، ويتعمق في استكشاف فضاء الصحراء، فيبدأ الكاتب في روايته بتشكيل شخصيات وأماكن ذات أبعاد جغرافية واقتصادية وسياسية واجتماعية وتاريخية وثقافية، تعكس هذه الشخصيات والأماكن التراث القديم والثقافة المتأصلة في إقليم توات، فالروائي يسلط الضوء على كيفية تأثير الصحراء على حياة الناس وعلى التجارة والاقتصاد والتاريخ في المنطقة. بهذه الطريقة، ينجح الزيواني إلى حد ما في تجسيد الصحراء كمكان حقيقي وفضاء مفعم بالحياة والتنوع، يحقق التوازن بين الجوانب الواقعية والخيالية في روايته، كما ينقل القراء إلى عالم صحراوي غامض ومغرٍ يحمل العديد من الرموز والمعاني؛ حيث يسافر الروائي الصديق حاج أحمد في روايته مملكة الزيوان بشخص تكون تكاد تكون حقيقية في أمكنة صحراوية حقيقية، إذ يكتشف البيوت والرمال هناك في مرابع توات بأدرار؛ وهي عوالم غرائبية، والكاتب في روايته وهو يكشف ويكتشف فضاء الصحراء، يشكل من خلال شخصيات روايته وأمكنة جغرافيا اقتصادية وسياسية واجتماعية وتاريخية وثقافية؛ والتي كانت متأصلة منذ القدم في إقليم توات، وكيف أن قوافل المسافرين قد عرفت وألفت طرقها منذ الأزل. أما الكاتب عبد القادر ضيف الله فقد ذكر في مقال بعنوان "جمالية المتخيل الأنثروبولوجي في رواية مملكة الزيوان نشر في الحياة نت الجزائرية قائلا: تُعدّ مملكة الزيوان من الروايات الجزائرية الصادرة حديثا والتي اشتغلت على البعد الأنثروبولوجي، الذي يُعتبر حالة من الترحال في الجوانب الخفية الغامضة من الحياة الإنسانية، وهو نوع من الترحال الذي يأخذ القارئ إلى عوالم غريبة وبعيدة

4. فضاء المكان؛ القصور ب "توات":

يبدو أن الرواية "مملكة الزيوان" قد أسهمت في إلقاء الضوء على الجانب المعماري للصحراء وتجاوز الصورة النمطية التي روجتها وسائل الإعلام المحلية، وفي تلك الصورة النمطية كان الانتباه يتركز عادة على الخيمة كمسكن رئيسي للإنسان الصحراوي، ولكن الرواية كشفت عن تنوع المعمار في الصحراء بعيدا عن هذا النمط الواحد، حيث تسلط الضوء على القصور والمنازل التي تعيش فيها القبائل الصحراوية، وتصف تلك البيوت بأنها ذات هندسة فريدة وتتميز بسحرها العجيب وذكاء

الإنسان الصّحراوي في تلك الرّبع من الجزائر، كما يمكن أن يكون القصر الذي يذكر في الرواية مثالا على هذا النوع من المعمار، إذ يعيش الناس داخله بأسلوب حياة فريد ومميّز جدًا

كما ذكر الفيلسوف الفرنسي (غاستون باشلار، 1962) في كتابه "جماليات المكان": (إنّ المكان الذي يجذب نحوه الخيال، لا يمكن أن يبقى مكانا لا مباليا، ذا أبعاد هندسية وحسب، فهو مكانٌ قد عاش فيه بشر ليس بشكلٍ موضوعيٍّ فقط، بل بكلّ ما في الخيال من تحيُّر)، فللمكان قيمته لدى الأدباء، وله مكانته عند النقاد والمؤلفين فليس المكان جزء من التضاريس، والأشكال فحسب، بل هو عواطف وأخيلة، وهذا ماسلكه الكاتب والروائي الصديق حاج أحمد الزيواني في روايته؛ مملكة الزيوان، كاماراد، ومَنّا...قيامه شتات الصّحراء؛ حيث تفتن كابين من أبناء الصّحراء لوعي الكتابة عن مكان يعرفه أكثر من غيره، حيث وظف الروائيون الجزائريون على اختلاف توجهاتهم متخيل الصّحراء، " حيث وظفوا جماليات الصّحراء في أجساد نصوصهم وتمفصلات سرودهم، بدء بعتبة العنوان، ومرورا بالشخصيات والأحداث والتوظيف المشهدي، وصولا إلى لغة المكان بأقلام العارفين بالمكان"، وقال صاحب مجموعة "حائط رحمونة" لضفة ثالثة: " يتجلى حضور الصّحراء في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية بالخصوص، حيث لم تغب جمالية الصّحراء، التوظيف الفني في السرد الجزائري". وقد استثمر الروائي الصديق حاج أحمد تقنية مصاحبات الخطاب بكثرة، وهذا للكشف عن علاقة فضاء القصر الروائي المتخيل بالفضاء المرجعي، فيؤكد للقارئ أن هذه القصور ليست محض صدفه خيال، وإنما هي قصور واقعية مما يؤجج الرغبة لدى القارئ في اكتشافها وزيارتها، فقد جاء في هامش المتن على الصفحة السابعة قوله: "... ما شاء الله له أن يرى، من أوصاف الواصفين للجمال وفنون أذواقه، بمخطوطات خزائن مملكتهم الزيوانية بقصور تمنطيط وتليان، وملوكة، وزاوية كنتة وزاوية الشيخ المغيلي، وأنزجمير وأقبلي، وأولاد سعيد، والمطارفة، بل قد سار به الحال حتى بلاد السودان الغربي، فبلغ حواضرها العلمية..."⁴، كما عمل على تعريف مقتضب للقصور المذكورة في قوله آنفا؛ نحاول أن نعرف ببعض القصور؛ على أن معنى القصر بأدوار يتمثل فيما يعرف بـ " القصة" قديما؛ وهي بيوت الأشراف ذات السور العالي، والبرج والمسجد... تسكن هذه القصة عائلات يتوزعون على بيوت طينية، بحيث ينتهون غالبا إلى جد واحد، ومن باب اطلاق الجزء على الكل صارت القرية كلها تعرف باسم القصر:

1.4. تمنطيط:

وتعود تسمية القصر بتمنطيط - حسبما ورد في مخطوط " البسيط في أخبار تمنطيط" لمؤلفه محمد بن بابا حيدة - إلى الأصل العجمي وهي مركبة من جزأين "أتما" وتعني النهاية "تط" وتعني العين كما أن هناك إشارة أخرى لمعنى تمنطيط فهي تركيب لكلمتي " أمان" و"تيط" وتعني العين، ويعد قصر تمنطيط من أبرز الحواضر العتيقة والعريقة التي عرفتها منطقة صحراء وشمال إفريقيا منذ القدم، حيث ظل شاهدا تراثيا حيث استمد قيمته التراثية من موقعه الجغرافي؛ الذي يقع في قلب إقليم توات بهندسة معمارية صحراوية متميزة، تستقطب عبور القوافل التي كانت تعبر الصحراء، فازدهرت الحركة التجارية بهذا القصر واستقر به السكان، وتوفرت به المياه بكثرة فاستغلها الإنسان عن طريق نظام الفقّارة، ومارس بها نشاطا فلاحيا رائدا، مما جعل قصر تمنطيط من أعظم الحواضر الإفريقية اقتصاديا وفكريا وعلميا، حيث استقطبت شخصيات عظيمة في مجال القضاء والعلوم الشرعية، كما يعيش بها مزيج من القبائل شكلت نسيجاً عمرانياً منسجماً، متسقاً يسكن عمراناً تقليدياً مشتركاً؛ في المواد الأولية، وهندسة البناء وتقنية الطرقات والممرات، هذا البناء الذي يعتمد على " القصبات" ومنها: قصبة توفاعي، وقصبة تاهقة،

وقصبة أولاد محمد، كما يتواجد بقصر تمنطيط عدة أضرحة منها ضريح سي بايوسف محمد ومخزن الشيخ المغيلي... دون أن ننسى أن الجوانب الاجتماعية والثقافية والدينية وما لها من أثر بالغ في تشييد المساجد والمنازل، مما أعطى لقصر تمنطيط طابعا خاصا متميزا. كما عرف سكان هذه المنطقة حرفا تقليدية واشتهروا بحرف تقليدية تعتمد الصناعة اليدوية؛ حيث برعوا في صناعة الفضة، والطين والحداة، والنسيج باختلاف أنواعه؛ خصوصا بأجزاء النخل كسعف الجريد.

2.4. تيليلان أو تينيلان:

هي إحدى قصور أدرار بالجنوب الغربي الجزائري الكبير، وأصل التسمية تعود إلى اللهجة الزناتية حيث تسمى "تينيلان" وتتركب الكلمة من جزأين؛ تين: أي مكان وإلال: أي الأحرار وتعني الكلمة ككل؛ مكان الأحرار، ويسكن تيليلان مرابطون عرب أصلهم من بودة، ويعود تأسيسها إلى الحاج أحمد بن يوسف من أولاد أنقال بعد انتقاله إليها عام 1647 ليؤسس بها زاوية، ويعتمد أغلب سكانها على الفلاحة والزروع والتي يغلب عليها غرس النخيل واعتماد السقي بنظام الفقارة حيث يوجد بهذا القصر خمس فقارات مشهورة وهي: فقارة شعب وبغداد والزاوية، والسبخة وتاركمون.⁵

3.4. ملوكة:

وهو قصر من قصور أولاد أحمد بأدرار بالجنوب الغربي الجزائري، وتعود التسمية إلى أن البلاليين اشتروها فصارت ملكا لهم فشيدها وحرصوا على تحسين مظهرها المعماري، كما اعتمد سكان ملوكة في كسب الرزق على التجارة والفلاحة، كما يستعمل فلاحو ملوكة على غرار كل القصور على نظام سقي نخيلهم بالفقارة.

ومن أشهر شخصيات ملوكة وأعلامها نذكر سيدي الحاج بلقاسم البلبالي؛ وهو ولي صالح وله ضريح بملوكة، يزار كل عام.⁶

5. الأغاني الشعبية بمنطقة ثوات؛ أدرار:

نجد في المجتمع الصحراوي أغاني ترتبط بمناسبات محددة مثل يوم الختان، وهناك أغاني تستخدم لتنويم الأطفال وتعليمهم التربية الصحيحة، كما توجد أغاني تعبر عن النجاحات والتفاؤل بمستقبل الشباب والفتيات، وليس هذا فحسب بل توجد أيضا أغاني مخصصة للاحتفال بالمولد النبوي الشريف، حيث تعبر عن الحب والتبجيل للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، حيث تعد الأغاني الشعبية جزءا هاما من التراث الثقافي للشعوب وتعكس عاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم، إنها وسيلة للتواصل والتعبير عن المشاعر والأفكار، كما تلعب دورا عظيما في تعزيز الانتماء الثقافي وتعاطف الناس مع بعضهم البعض، لنجمل القول على أن الأغاني الشعبية تعد شعرا شعبيا يتميز بالوحدة الموضوعية؛ فهو لون من ألوان الثقافة والتراث الشعبي، ويكون الشعر ملحونا يلقي ويغنى في مناسبات معينة، تغنيه النسوة كما يغنيه الرجال، وقد تجد أطفال وبنات صغار يلعبون ويغنون ما قد سمعوه في مناسبات دينية أو وطنية أو في الأعراس؛ ففي المجتمع الصحراوي هناك أغاني تخص يوم الختان وهناك ما هو مقترن بتنويم الصغير والتربيت على جسده، وهناك ما هو خاص بالنجاحات والتفاؤل بمستقبل البنين والبنات، وهناك أغاني المولد النبوي

أمّا ما وجدناه في رواية مملكة الزيوان للصدّيق حاج أحمد، فيتمثل في أغنية الأمّ لصغيرها قائلة:

الله الله

ياسيدي بوتدارة

يا من جاهك عند الله
آجال الصبارة
جيت مهودة لتوات
ألقيت الزعفة مابقات أداها بوريشات
أو لحت العار على مولانا⁷

وهي قصيدة شعبية غنائية لا يعرف مرجعها ولا مصدرها، بل تحفظها كل البنات خصوصا المنجبات حديثا، فالطفل يناغي أمه وهي بدورها تحاوره وتلاعبه وتحرضه على الهدوء والنوم بواسطة صوتها الرخيم في سمع صغيرها فيكون بمثابة منبه له، لا يسمع من خلاله موسيقى فقط إنه يطرب لصوتها المليء دفئا.

6. الأمثال والحكم الشعبية:

لقد اهتم العرب منذ القدم بالأمثال والحكم الشعبية فهي ملخص حياتهم، وزبدة تجاربهم، ليصير المثل في المناطق الصحراوية ضربا من ضروب الحياة، وركيزة ثقافية تعد مرجعا للخلف عن السلف، على مر الأزمنة والعصور، ونذكر تعريفا للمثل الشعبي على أنه: (تقطير لقصة أو حكاية والتي يعبر المثل عن مضمونها)⁸.

وتؤثر الأمثال الشعبية تأثيرا إيجابيا على الوعي الجمعي الصحراوي، فمن خلال تصفحك لرواية مملكة الزيوان تلاحظ حضورا قويا للمثل الشعبي كشكل من أشكال التعبير الشفهي الذي يختصر الكلام، وما يجب أن نلفت النظر إليه هو أن كل الأمثال الشعبية التي ذكرها الروائي حاج أحمد الزيواني في روايته جاءت على اللهجة التواتية ومن الأمثلة نذكر:

- "عَشْ عَشْ يا البَّاس"⁹؛ ومعنى المثل يتمثل في طرد كل الشرور والأضرار عن الإنسان، أي ارحل ارحل أيها البَّاس
"المَّا إِيلا نَكْسَرُ فِي الْجَنَانِ ما ضاع"¹⁰؛ ويقصد به أن الخير أينما وقع نفع وإن حدث له مكروه، أي أن عواقب الخير سليمة وإذا ما ذكرنا المثل فصيحاً نقول: الماء إذا انفجر وفسدت وجهته، فإنه سيبقى داخل الجنان وبالتالي سيبقى نافعا لا مضرّة منه.

- "عَدَّسُوا أو بذروا ولا يبقى شي من العوايد"¹¹؛ أي اغرسوا العدس والبذور من قمح وفلفل وطماطم... ولا تتركوا أي عادة من العادات كي لا تزول وتبقى أبا عن جد.

- "اللسان مافيه عظم يا ولد بويا."¹²؛ أي أن القول باللسان لا يتوافق مع ما يكنه الإنسان من أحقاد ودسائس، وأن اللسان فيه النفع والضرر حسب استخدامه. - "تاكل الغلة وتسبب الملة"¹³؛ ويقصد بهذا المثل الشائع أن الإنسان الحقير يستفيد من مكان أو إنسان، وعوض أن يشكرهما ينهال عليهما سبا وشتما في غيابهما؛ وهو ما يفسره العرب بالفصحى بنكران الجميل والخير.

وقد ورد ذكر القرآن الكريم الأمثال في قوله تعالى: ((وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحياها الذي أنشأها أول مرة وو بكل خلق عليم))¹⁴ ويقول تعالى: ((يا أيها الناس إذا ضرب مثل فاستمعوا إليه))¹⁵، كما قال عز من قائل: ((ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون))¹⁶.

وبما أن الصَّحراء فضاء يلهمك فإن الأمثال في حياة مجتمع توات بأدوار له عاداته وتقاليده فهي عبارة عن حكم خالدة تأخذ سامعها وتغو صبه في بحر من المعاني والحكم الصادقة والمستمدة من تجارب ووقائع حقيقية، تعبر عن فطنة وتوقد ذكاء

إنسان الصحراء وثقافته الواسعة؛ هي أمثال وحكم ولدت عن تجارب وهي نتاج تأثيرات ووقائع إجتماعية وثقافية تراعي المبادئ الفاضلة والقيم المثلى. 7. **النُظُم الثقافية لمجتمع صحراء توات "أدرار":**

- اللباس التقليدي: ويتكون من مجموعة الألبسة التراثية والشعبية التي حافظ عليها المجتمع الصحراوي، ولا يزال يحافظ عليها منذ قرون، وهذا ما يظهر الإنسان الصحراوي متشبثاً بتقاليد اللباس وبالأخص في الأعياد والمناسبات، على أن المظهر التقليدي جزء لا يتجزأ من التراث وحضارة الإنسان في صحراء الجنوب والجنوب الكبير، إذ يعد اللباس التقليدي وسيلة من وسائل التعريف بأمة من الأمم؛ تنال بها التميز عن باقي الجماعات البشرية وتصبح متفردة باختيارها واختيار لونها وشكلها فتبرز ذوقها ووعيتها وتعايشها الدائم، فالروائي الصديق حاج أحمد يبرز ويصف لكل جنس لباسه ولكل عمر ومناسبة زيه الخاص ومن الألبسة نجد: العمامة؛ والتي يلقيها الرجل حول رأسه، إذ هي عبارة عن قطعة قماش مستطيلة الشكل يبلغ طولها عادة متر ونصف المتر، متعددة الألوان حيث تقي الرجل من القر شتاء، والحر صيفاً، وقد تحدّث الدوّلي أبو الأسود عنها في قوله: "هي جنة في الحرب ومكنة من الحرّ، ومَدْفأة من القرّ ووقار في التّدْي... وزيادة في القامة، وهي من عادات العرب"¹⁷.

كما نجد الإزار وهو لباس خاص بالمرأة التواتية الصحراوية، وهو عبارة عن قطعة قماش من أربعة أمتار تلتحف به، ويغطي الجسد كاملاً، يُلبس عادة في المناسبات والأفراح، ويميز المرأة على أنها ليست عازبة، إضافة إلى المحرّمة؛ وهي قطعة قماش مربعة الشكل، تغطي به المرأة رأسها، وهو لباس يعبر عن عادة من عادات النساء الصحراويات المتمثل في الستر والاحتجاب، والذي يعبر عن لحياء والوقار، كما نجد العباية كما ذكرها الروائي، ويعني بها العباءة والتي تتكون من قطعتين تستران الجزأين العلوي والسفلي للمرأة التواتية.

- الأكلات الشعبية:

أ/ الكسكس: لكل مجتمع طريقة طهو أكله وكيفية تحضيره مع وجود شبه في أنواع الأطباق وطنياً، وأن التغير في الاسم فقط، وكذلك الحلويات حسب المناسبة التي تقام فيها، حيث يشير الكاتب في كل مرة إلى الأكل، فكل مناسبة تلحقها أكلة شعبية خاصة بها؛ تقدم للضيوف عادة بكل حب وفرح، وإذا تحدّثنا على الطعام تبرز لنا صفة دائمة في الإنسان الصحراوي وهي الكرم والسعادة في الأكل الجماعي والترحيب الصادق بالصديق والضيف، ونجد عدة عبارات ذكرها الكاتب في روايته منها: "تحلق الحضور في شكل حلقات دائرية، عدد الحلقة الواحدة كما جرى العرف عندنا أن لا يتعدى العشرة من الرجال، وجيء بالقصعة الخشبية المغطاة بالمكب كانت تلك القصاع المملوءة بالكسكس الممرّق، قد وضع عليها عطاري من اللحم المربوط بسعفة خضراء مطهّوة معه..."¹⁸ ويوزّع اللحم من اليمين إلى اليسار وهو ما يسمّى بعادة التّسمار.

أما عن معنى **العطّاري**: فهو مقدار من اللحم يزن قرابة الكيلوغرام الواحد حيث يمنح هذا المقدار من اللحم للضيف في كل وجبة وهو دليل على الكرم والسخاء.

ويعتبر الكسكس أو الكسكسي رمزا لكل المنطقة المغاربية، له شهرة عالمية فهو قدم قدم التاريخ، ويمثل هوية ثقافية لكل مناطق الجزائر تقوم النسوة الصحراويات بقتله وإعداداه بواسطة السّמיד مع الماء، وهذا ما يعبر عن أصالة النسوة الصحراويات ومحافظتهن على العادات والتقاليد وفنون الطبخ وما يعكس احترامهن لأزواجهن وطاعتهم لهم.

ب/ الشّاي: يعد الشاي أو التاي بنطق الشين تاء لدى المجتمع التواقي مشروبا دائما، تحضره النسوة كما يحب الرجال تحضيره في جلساتهم وسمّهم بعيدا عن الديار في الصحراء، أدواته إبريق وموقد الأفضل حطبا جزلا فمذاق الشاي حينما يطهى بالحطب أفضل مع توفير أوراق الشاي ومادة السكر، حيث يستهلك الشاي ليل نهار، ويعرف الجميع أن للشاي نفعا عظيما لصحة الإنسان وبقية العطش وعدة أمراض، وقد ذكر الروائي طقوس تحضير الشاي في قوله: "كما كان إعداد أبي لطقوس الشاي لوحده، دون وجود أو إعداد من مبارك..."¹⁹.

ج/ المردود: وهي أكلة شعبية معروفة بكثرة في صحراء الجزائر، وقد نجده بتسميات أخرى فقط؛ تقوم النسوة بفتله مثل الكسكس إلا أن حباته أكثر حجما فقط يدعى أيضا بالبركوكس والبركوكش ومن طرق إعدادده أنه يمزج مع مرق أحمر يعد خصيصا له حيث ذكر في الرواية من خلال قول الكاتب مبرزا أكلة شعبية معرّفا بها أثناء في معرض حديثه عن والدته: "تقوم بمعاونة جارتها أمبيركة زوجة سيد الحاج لعوج في فتل الكسكس أو المردود"²⁰.

د/ كما تحدث الروائي عن نوع من أنواع الخبز يُدعى ب: خبز أنور؛ وهي أكلة شعبية تواتية شهية حسب قول الكاتب وتتميز بسهولة الطهي، تعتمد على دقيق القمح يعجن بالماء يتم طهوه في التنور؛ وهو قدر من طين وقد وصف الكاتب هذه الأكلة بقوله: "أشهى الأطعمة عندي وأفضلها على الإطلاق في وجباتنا التواتية البسيطة، كخبز أنور، والخبز المبطن..."²¹.

8. الجانب التاريخي في رواية "مملكة الزيوان":

عندما يتعلق الأمر بالكتابة التاريخية والسرد، يمكن أن يكون من الصعب فصل الشكل الأدبي أو السرد عن المحتوى التاريخي، فيمكن استخدام مصطلح "شكل المحتوى" أو "محتوى الشكل" للإشارة إلى هذا الجانب المترابط بين السرد والتاريخ.

مصطلح "شكل المحتوى" يعكس فكرة أن الشكل الأدبي أو السرد للكتابة يكون جزءاً لا يتجزأ من المحتوى التاريخي. وبالمثل، "محتوى الشكل" يشير إلى أن السرد يساهم في بناء وتشكيل المحتوى التاريخي بشكل لا يمكن تجزئته.

هذه المصطلحات تعكس الفكرة الأساسية التي يقدمها هايدن وايت وغيره من النقاد في أن الشكل السرد يلعب دوراً حيوياً في تشكيل وتسريد التاريخ، وأن المحتوى التاريخي والشكل الأدبي مترابطان بشكل وثيق، وفي الخطاب السرد التاريخي، يتم تقديم التاريخ كواقع حقيقي، ولكنه يتخذ شكلاً فنياً ويتأثر بعملية التحريك والتنظيم اللغوي، يتطلب الخطاب السرد تحويل المادة التاريخية إلى نص مكتوب، وهذا يستدعي استخدام اللغة والتنظيم البنيوي للتواصل والإبلاغ، لأنّه عندما يتم دمج الحقائق التاريخية في لغة النص، يظهر تعدد المعاني والاحتمالات المختلفة للتمثيل، كما يتم تحرير المعنى من القيود العلمية والأحادية، وتنشأ سياقات جديدة للتعبير المرتبطة بالواقع الحالي والنص الحاضر، يتم توسيع حرية التعبير والتفاعل مع الماضي والتخيل، وتنتج تلك الحرية تناغماً بين التاريخ والخيال السرد.

هذا التلاقي بين التاريخي والسرد يمكن أن يزيد من التحرر من الرقابة المؤسسية ويمكن للخطاب السرد أن يتجاوز القيود المحددة زمانياً ونصياً، يمكن أن يؤدي ذلك إلى تحقيق توازن بين الجوانب التاريخية والخيالية والإبداعية في السرد التاريخي، فتحدث عن التاريخ داخل الخطاب الروائي، يمكن استخدام مصطلح "التمثيل التاريخي" للإشارة إلى الكشف عن جوانب التاريخ غير المؤرشفة وغير المسيطر عليها، يشمل ذلك التاريخ الذي تم حذفه أو إهماله أو تجاهله من المقررات التعليمية

والإعلامية، وذلك لأغراض تخدم خيارات واستراتيجيات، فالكاتب يتحكم في إزاحة النظرة التقليدية للتاريخ وتعيد صياغته بطرق مبتكرة ومغايرة، يتم تناول التاريخ من وجهات نظر جديدة ومختلفة، وتصبح الذات الكاتبة هي المسؤولة عن تقديم الحقائق والتفسيرات التي تراها صحيحة وضرورية.

9. التمثيلات التاريخية ومستوياتها في "منّا... قيامة شتات الصحراء":

ففي المستوى الأول؛ يُمثل البطل لمرباط المعرفة التاريخية العالمية والمتخصصة، إنه مؤرخ وأستاذ جامعي، ويتم تعارض معرفته بشكل نمطي مع نسخة عجائبية للمعرفة التاريخية، هذه النسخة العجائبية للمعرفة هي معرفة شعبية، متوارثة ومسلّم بها، وغالبًا ما يتم تناقلها دون فحص أو تدقيق، يحملها أهل "توات" بصحراء الجزائر والأفراد العاديين في المجتمع، أمّا في المستوى الثاني؛ تتواجه ثنائية ضدية أخرى تتعلق بالتاريخ المؤسّساتي والتاريخ المسكوت عنه، يتم تمثيل التاريخ المؤسّساتي المؤدلج بواسطة الخطابات والأفعال التي تنشأ عنها المؤسسات والسلطات الرسمية. بالمقابل، يتجلى التاريخ المسكوت عنه من خلال التشابكات الروائية والمحاورات بين الشخصيات وأفعالها وحالاتها، تتداخل هذه الخطابات والأصوات المتنافرة في التسيج الروائي للرواية بأكملها، وتسعى لإظهار حقائق متعارضة مع الرواية التاريخية المعتادة والمألوفة، ومن خلال هذه الثنائيات الضدية والتضاربات، تقدم الكاتبة رؤيتها الخاصة للتاريخ ومفهومها للحقيقة، لتسعى إلى إلقاء الضوء على جوانب مخفية ومنسية من التاريخ، وتحاول تصحيح السرد التاريخي المسيطر باستخدام التخيل السردى والمراجع الموثقة، تنجح الرواية في تحقيق هذه الأهداف وتقديم رسالة تعليمية وتوعوية تتعامل مع التاريخ بشكل مبتكر ومفتوح للنقاش والتحليل والتصحيح إذ مكّنت تحديد مستويين من المكوّن التاريخي في الرواية، وعلى كل مستوى يمكننا مقارنة بين ضربين متعارضين من الحضور التاريخي؛ فما سرُّ تلك الرّفعة التي يملكها؟ لماذا لم يستطع (لمرباط) الفكّك منه وعنفوانه؟ ولماذا ينجذب إليه طائعا؟ ففي عملية الاستكشاف والكشف عن الحقيقة، يتعين علينا كقراء أن نتحلى بالفضول والحرص على البحث والتحري، يجب أن نكون مستعدين لمباشرة سبيل التعرية والتحقق من المعلومات بأنفسنا، من الضروري أن نكون قادرين على ممارسة فعل التصحيح وإصلاح الأفكار والمفاهيم.

10. مصادر كتابة التاريخ:

استهلال الرواية بالعجائبي ولغز المغارة يعكس توجّها نحو المدهش والمثير، ومع ذلك قد تنحرف الرواية في بعض الأحيان نحو المعقولة، أي تميل إلى تطبيق المنطق والعقل في تفسير الأحداث وتجاوز العجائبي. فالصحراء كمثال بوصفها فضاء غير مألوف تحتاج إلى نزع الغرائبية عنها وتحويلها إلى عالم مفتوح يمكن استكشافه وفهمه بواسطة المنطق والعقل، والفكرة هنا هي أن الرواية تسعى إلى دمج العجائبي والغرائبي مع المنطق والعقل، وذلك لتجاوز الحدود المفروضة على الخيال والابتكار، وأن تصبح قادرة على التواصل والتأثير في العقل البشري والثقافة العالمية؛ حيث يُعمل الروائي فكره من خلال قوله في المتن: "وما إن بلغ نهاية ما قر في قلبه، وحدّث به نفسه، حتى سمع صوتا نسويا لطيفا خفيفا يناديه من الداخل؛ أن ادخل، فولج ولم يسم، بل تعمّد فعل ذلك..."²²

إنّ الصحراء ليست مجرد مصدر للأساطير والخرافات، وإنما هي موطن للتأمل والتفكير العميق، إنها تحمل في طياتها الحكمة العميقة والجمال الذي ينبعث من تلاقي الروح مع الطبيعة الخلّابة، لأنّ الصحراء ترمز إلى الحكمة والمعرفة والتأمل؛

"سنحت له الفرصة لأن يرى قراءة ما شاء الله له أ، يرى من أوصاف الواصفين للجمال وفنونه وأذواقه، بمخطوطات خزائن مملكتهم الزيوانية بقصور تمنطيط، وتليان وملوكة.... وزاوية الشيخ المغيلي..."²³

وتتحدثُ الرواية عن مدينة "توات" وتاريخها وجغرافيتها، من خلال تحويل الرواية إلى هذا السياق، يقوم المؤلفُ بشرح المفاهيم غير المعروفة وتوضيح معانيها، يتعرض القارئ لأسماء غريبة في الهامش تعتبر إشارات للمتن الأساسي، وتعتمد معانيها على التاريخ والجغرافيا التواتية، فعلى سبيل المثال يذكر المؤلف أنّ "تمنطيط" هي مدينة قديمة شهدت حركة تجارية نشطة. وأما "تليان" و"ملوكة" فهما قصران، حيث يعني "القصر" في لغة توات المدينة نفسها، وكأنا مراكزا للعلم والعلماء، وهكذا يستمر السرد في رحلته العلمية داخل تاريخ توات، مستكشفًا محطات تمدّن وحضارة هذه المنطقة؛ "بل قد صار به الحال حتى بلاد السودان الغربي، فبلغ حواضرها العلمية كتمبكتو وغاو وكانو وأقادز، وخالط العلمية هناك، كآل كنتة وآلسوق وآلفلان، واطلع على مخطوطات مخالب الجمال وناق الحسن التي تخلب لب الرجال من فتنة النساء بمخطوطات خزائن خيامهم وحلائهم، وما أكثرها، وشاهد هناك المرأة التارقية الجميلة بكل ما أوتيت من سحر جذّاب وفتان"²⁴ فيبدو أن هذا السجلّ المطرّز بأسماء الأعلام والمعلومات التاريخية يعكس كثافة تاريخية لافتة وقوة معرفية مميزة، حيث يتمّ توثيق الماضي في هذا السجلّ من خلال السجّلات والوثائق الموثوقة والشواهد الحقيقية التي تزودنا بمصدقية الإحالة.

فالتأويل هو عملية فهم وتفسير النصوص والمعاني، وفي السياق الذي ذكرته، يمكن أن يكون المستوى التأويلي يرمز إلى أن الصحراء، التي غالبًا ما تكون مهمشة في الواقع، هي مصدر الحقيقة والمعرفة العميقة، يتمّ تجليها وتعظيمها في الرواية، وتعتبر قيمة ثمينة يجب أن تحتفي بها وتُعلّق قلادة في أعناق أبنائها... "هذا عهدنا وميثاقنا إليكم أيها الجيل الجديد... إن أرض الزيوان هي قلادة ثقيلة في أعناقكم، لها من الحمولة التاريخية والزخم الثقافي..... وإياكم والالتفات كثيرا للوراء، فإنه قد فات ومات... وانظروا إلى حاضرهم بما تستشرفون به مستقبلهم... ولا يضيركم أن يبقى كل واحد منكم على أصله..."²⁵. هذا التصوير يعكس رؤية المؤلف بأنّ الصحراء وما تحمله من تاريخ وحضارة وحكمة يجب أن يتم احترامها والاعتراف بها، ومن خلال تسليط الضوء على هذا المورد الثقافي والتاريخي المهمّش، يتمّ إعطاء قيمة للثقافة والهوية الصحراوية وتعزيزها، وإجلاء هذه الفكرة في الرواية يمكن أن يُساهم في إلقاء الضوء على التراث والثقافة المهمّشة وإعادة تقديرها، إذ تبدو الوصية التي يتلوها السارد في نهاية المهمة كتأكيد على أهمية الصحراء ودورها الحاسم في كشف الحقيقة المغفلة والمهملة، بعد أن تم إثبات أن الصحراء تمتلك أصلاً نورانيًا، يصبح من الصعب تصديق التمثيلات السائدة أو المفاهيم المغلوطة التي تمّ الترويج لها؛ فالسارد يحث أبناء الصحراء على الاعتزاز بهويتهم وتراثهم وأن يكونوا فخورين بأصلهم النوراني.

– أثر المعرفة وسلطانها في بلورة خطاب الذاكرة الجمعية:

إنّ فهم التاريخ والقدرة على تحليله ونقده يمكن أن يمنح الروائي والمتلقي حق الإدانة والنقد، فالتاريخ يعتبر مصدرًا هامًا للمعرفة والفهم، ويمكن أن يكشف الحقائق والأحداث التي شكلت الواقع المعاش، والأهم أن نفهم أن التاريخ ليس مجرد مجموعة من الوقائع المحايدة، بل يمكن أن يتأثر بتفسيرات ومنظورات مختلفة، ومن لم يسمع بالتجارب النووية برّقان في صحراء الجزائر؟ لا يمكننا إنكار أن الأشخاص الذين يملكون معرفة تاريخية واسعة وقدرة على تحليلها وتفسيرها قد يستغلونها لتحقيق أجنداتهم الخاصة أو لتعديل الحقائق بما يتلاءم مع آرائهم، ومع ذلك فإنّ وجود نقاش ونقد بناء حول التاريخ وتفسيره يعتبر جزءًا أساسيًا من عملية الاستكشاف والتعلم، فعندما يتصادم الآراء والتفسيرات المختلفة، يمكن أن ينشأ نقاش مثمر يساعدنا على

فهم أكثر عمقاً للماضي وتأثيره على الحاضر، كما يجب فهم التاريخ على أنه مادة للتأمل، ويمكن استخدامه لتعزيز الوعي والتغيير الاجتماعي، فعندما ندرس التاريخ بشكل صحيح ومتوازن، يمكننا أن نفهم الأخطاء التي ارتكبت في الماضي ونسعى لتجنب تكرارها في المستقبل، حيث تحدث الصديق حاج أحمد عن أهمية تاريخ الذات والتأثير الذي يمكن أن يكون له على الوعي الفردي والجماعي، كما يمكن أن يكون للتاريخ الشخصي أو الجماعي تأثير قوي على الهوية والوعي للأفراد والمجتمعات. فعندما تختار الأنا حدثاً تاريخياً للتفكير فيه، فإن ذلك يعكس الأهمية التي تُعطى لهذا الحدث وتأثيره على حياتك وتجربتك الشخصية، فقد يكون لديك رغبة في فهم أعمق لتأثير هذا الحدث على حياتك وقد يكون لديك رغبة في التعبير عنه ومشاركته مع الآخرين، إذ يبدو أن "لرابط" يعتبر الحدث المحوري في الذاكرة الجمعية الصحراوية حيث يرغب في أن يحصل على قبلة "رقان" كنوع من الامتياز أو الاعتراف بتمثيله للإنسان الصحراوي في تلك المنطقة، كما يسعى "لرابط" لأن يكون الممثل البارز أو المرجع الرئيسي للثقافة والتاريخ الصحراوي في المنطقة التي يعيش فيها، "إنها تتعلق بالامتياز المعطى عفويا للأحداث من بين كل الأشياء التي نتذكرها"²⁶

- جدلية الذاكرة الجمعية وعلاجها بالإدانة:

قرر الروائي المروج للفكرة توثيقه سردياً وإدراجه في الخطاب التعليمي بهدف إشراكه في الوعي الجماعي، "يعتبر الخطاب البيداغوجي أكثر الخطابات فكاراً، إنه أكثر فكاراً من الخطاب السياسي ذاته"²⁷ كما يُعتبر تضمين الأحداث الجلييلة والمهمة في المناهج الدراسية قضية ذات جدل، حيث يختلف الناس في الرؤى والقيم، إذ ينبغي أن تكون هناك إجراءات وآليات لاتخاذ القرارات المتعلقة بالمناهج بشفافية وعدالة، مع النظر في مختلف الآراء والمصادر والمراجع العلمية؛ "ليس من العدل ولا المناسب إغفاله، لذلك عمد السارد إلى توثيقه سردياً وإدخاله إلى الخطاب البيداغوجي بقصد إقحامه في الوعي الجماعي...وعندي في المساء حصّة مع الثالثة، حول آثار القنبلة النووية على رقان ومملكة الزيان"²⁸ من المفهوم أن تشير إلى أحداث قبلية كحدث ماضٍ لأنها مناسبة مفصلية في التاريخ وقد تكون لها تأثيرات مستمرة على المجتمع والثقافة. إلا أن استخدام صيغة "آثار" غير قابلة للمحو يشير إلى أن الحادثة لها تأثيرات عميقة ومستدامة تظل تؤثر على الذاكرة والوعي الجماعي، كما أنه من الواضح أن السارد يرغب في التأكيد على فظاعة الحادثة وإجرامية الجاني، ويعتبر أن الأصوات الحقوقية والبيئية والإنسانية لم تعبر بشكل كافٍ عن شدة الجريمة. وبالتالي، يعتبر السارد واجباً عليه توثيق الحادثة بشكل سردي لكي لا يضع الحق الإنساني وتبقى الحقيقة موثقة في السجلات التاريخية، فنجد إشارة السارد إلى طمس الحقائق الاستعمارية وتزويرها تشير إلى أن الطرف المدان في الحادثة هو جزء من نظام يسعى لتشويه الحقائق وتقديمها بطريقة تخدم مصالحه، كما يعتبر السارد أن توثيق الحادثة سردياً يمكن أن يساهم في تجاوز هذا الطمس وتقديم الحقيقة بوضوح، وخاصة وأن الحرب قد تبرر بعض الأفعال التي في ظروف أخرى لا يجوز القيام بها، إذ يعكس النص الذي قمت بتقديمه تصوراً قوياً للحقائق والظروف الاجتماعية والتاريخية المعقدة والتحديات التي يمكن أن يواجهها السارد في محاولتهم لإظهار الحقيقة وتوثيق الأحداث، كما تشير الرواية - دون أن يصرح بذلك البطل "لرابط" - إلى قوة الذاكرة والتأثير العميق الذي يمكن أن يحققه الروائي أو السارد ذاتياً والمتعلق بالأحداث التاريخية والثقافية. فيتم استخدام الإشارة المقتضبة لـ "قنبلة رقان"، يتم استدعاء الذاكرة الجماعية للوطن ويتم تجديد الوعي بتلك الأحداث المهمة والذخائر التاريخية التي يمكن أن تساهم في صياغة الهوية الوطنية والوجودية للأفراد؛ ي هذا

السياق، يمكن للسرد الذاتي أن يكون وسيلة فعالة للمقاومة الثقافية والتأكيد على أهمية الذاكرة الوطنية، وبالإشارة إلى أننا "قوم لا ننس"، يتم تأكيد التزامنا بمقاومة النسيان والاحتفاظ بالذاكرة الجماعية للمجتمع، ومن خلال قدرتنا على تمييز الأحداث والمعلومات التي يجب علينا عدم نسيانها، نستطيع بناء موقف وجودي يعكس قيمنا وهويتنا، ومن هنا نجد أن الأثر النفسي يتعامل بشكل أساسي مع حمل الذات الفردية والجماعية، ويعتبر أمراً ثقیلاً العبء وشديد الوطأة، حيث يتعلق بكرامة الإنسان وحرمة، فيبدو أن هذا النوع من الأثر يتجاوز الآثار الصحية والبيئية ويتركز في المجال النفسي والاجتماعي؛ وفيما يلي (الرواية) تاريخ آخر مضاد، كما يراه التابع الممثل بشخصية البطل (لمرابط):

"في القرون السابقة، عاشت البلاد تحت ظلام الاستعمار الغاشم، حيث تعرضت لاستغلال متواصل، ليترك الاستعمار آثاراً سلبية عميقة على الشعب وثقافته، إذ كان التاريخ المظلم للآخر يستحق الإدانة والتحقيق الدقيق، فلقد كانت هذه الحقبة من التاريخ مليئة بالظلم والتمييز العنصري، حيث تعرض السكان الأصليون للاستيلاء على أراضيهم وتهجيرهم، وتجبروا على العمل في ظروف قاسية ولا إنسانية، تم تجاهل حقوقهم الأساسية وتم تهجيرهم في المجتمع، بعد صراع طويل ومرير، شنت حركة تحررية شاملة لاستعادة الحقوق والكرامة، حيث ضحى الكثيرون وناضلوا بشجاعة من أجل الحرية والمساواة، وبفضل تضحياتهم ونضالهم، تم القضاء على الاستعمار واستعادة السيادة الوطنية، وفي البعد الأكثر فلسفة لهذا الموقف السردى، تتم إعادة بناء التاريخ من خلال تمثيله نصياً وأدبياً، ذلك أن فعل التخييل الروائي هو أكثر قدرة على فهم التاريخ والتعرف عليه كما لا يستطيع الفعل الوثائقي نفسه فعله"²⁹ كما يمكن الفهم أن التخييل يلعب دوراً مهماً في المشروع المضاد للمشروع الاستعماري المحكوم بأحادية الاستعلاء الإمبريالية، فالتخييل يروج لمنظور معارض للاستعمار ويعمل على إبراز الجوانب الوجدانية والشعرية والجمالية في التاريخ.

- تأزم الذاكرة والمداداة بالنسيان:

يذكر (بول ريكور) بأنه: "ليس الحدث التاريخي ما يحدث، ولكن ما يمكن أن يُروى"³⁰ فالروائي يستغل غياب تمثيل وجيه وعادل في تاريخ "توات" وثقافتها بطرق مبتكرة ومميزة. يعمل الروائي في هذه المنطقة المفتوحة ويتألق في تقنياته وجرافته التخيلية، وأيضاً في فلسفته ورؤيته الروائية.

ومن أبرز سمات التفرد في أسلوب الروائي هو التعامل مع التناقضات والمفارقات التي يمكن أن توجد في توات. يجد الروائي طرقاً متنوعة لدمج هذه التناقضات وإيجاد توازن بينها في أعماله، يمكن أن يربط بين الماضي والحاضر، بين التقاليد القديمة والتكنولوجيا الحديثة، وبين الثقافة البدوية التقليدية والعالم الفضائي، لأن ثنائية التذكر والنسيان تُعتبر من التناقضات الرئيسية التي يستخدمها الروائي في رواياته.

وباستخدام هذه التناقضات، ينشئ الروائي توتراً درامياً ويعزز التشويق في رواياته، يقدم قصصاً تجمع بين الأساطير والواقع، وبين الغموض والخيال العلمي، مما يخلق تجربة قراءة مثيرة وممتعة للقراء، حيث استغل الروائي غياب تمثيل وجيه وعادل في تاريخ "توات" وثقافتها بشكل متقن، ويعمل على إبراز التناقضات والمفارقات وثنائية التذكر والنسيان في رواياته.

فالرواية تركز على تجربة الذات الصحراوية التواتية وذاكرتها الجماعية، فإنها تعطي أولوية لمنظور ومشاعر هذه الذات وتنقل تجاربها وتحكي قصتها من منظورها الخاص وبالتالي، فإن فهم الرواية يتجه نحو فهم هذه الهوية والذاكرة الجماعية التواتية، كما نلاحظ أن هذا التأثير على الحيادية وتوجه الفهم لا يعني بالضرورة أن الرواية تفقد قيمتها الأدبية أو تصبح غير قابلة للاستمتاع

من قبل قرائها الذين يمكنهم استكشاف وفهم العوالم الثقافية المختلفة من خلالها، حيثُ يصرّح (لمرابط) من خلال قوله: "كما أن ذاكرتنا الصّافية نحن أهل الزّيوان قد ساعدتني كثيرا في إثبات تفوّقي وبجدارة، لسهولة الحفظ عندنا، ولا ينفكّ الحفظ عند دارس التاريخ وطالبه هو أكثر ما يخشاه ويتوجسه الطّلبة عندنا بمعهد التاريخ...."³¹ إن السرد الذي وصلنا إليه يصف إقامة تصوّر للشخصية التواتية التي تتميز بتفرداها في قدراتها ومهاراتها، وفي ميولها وقناعاتها. ومن الملاحظ أن هذا الاختلاف لا يخلف لدى الشخصية التواتية الزيوانية أي إحساس بالدونية أو النقص. بالعكس، يبدو أن ما يعتبر عسيرا على الآخرين يكون ميسورا بالنسبة للإنسان الصّحراوي، وقد ضمنت لهم هذه الصفات والفرادة ميزة فريدة تؤكد حضورهم الكبير والاستثنائي، لذا فمعرفة التاريخ والقدرة على استيعابه وفهم تفاصيله ليست بالأمر الهين على الإطلاق، فنشأة المجتمع التواتي الزيواني يمنح الشخصية الصحراوية القدرة على فهم العوالم الماضية والتفاعل معها بشكل متميز، كما يعني هذا أن الشخصية التواتية الزيوانية تمتلك رؤية فريدة وعميقة للتاريخ، وتستطيع تحليل الأحداث وفهم السياقات، وفي هذا قال ريكور: "نحن لا نملك أفضل من الذاكرة من أجل الدلالة على أن شيئا معيناً قد حصل، قد حدث، قد مرّ، قبل أن نعلن أننا نتذكره"³²

يُعتبر المحفوظ (التراث الثقافي والتاريخي) جزءاً هاماً من هوية المجتمعات ويعكس تاريخها وثقافتها وقيمها، يتم تناقل المحفوظ عبر الأجيال من خلال عدة وسائل مثل الرواية والشعر، والتراث الشفهي، والموسيقى، والفنون التشكيلية والمعمار، والتراث المادي الذي يشمل المباني والمواقع التاريخية والأشياء الثقافية الأخرى، حيثُ يقوم السارد أو الروائي بدور مهم في تقديم المحفوظ وتنوير الجمهور حول الإشكاليات الحضارية التي تواجه المجتمعات.

11. خاتمة:

وختاماً نذكر أنّ الروائي الصّديق حاج أحمد الزّيواني جعل من أعماله الروائية: "مملكة الزّيوان"، كاماراد و"منّا...قيامه شتات الصّحراء" مكاناً مركزاً بعد أن كان هامشاً، حيث عبّر هذا المكان - جنوب الجزائر الكبير - فضاء عجائبياً؛ من خلاله تجلّت المحمولات الثقافية، والتاريخية والتراثية للشّعب الصّحراوي بهذه المنطقة الزّاحرة بالعلم والمواطنة الحقّة، حيث كانت ولا تزال منطقة توات بأردار الجزائرية منارة للعلم والأخلاق، لم يتنكر ناسها لعاداتهم وتقاليدهم من حفظ للقرآن الكريم والفقه والمعاملات منذ نعومة الأظفار، وقد جعل الروائي من شخوص رواياته، تتفاعل مع المتن والمتخيل السردية أيّما تفاعل، حيثُ عبّرت عن الهوية الصحراوية وتراثها الجَمّ، فأضحت أعماله السردية جغرافيا سياحية، وتاريخية وثقافية، ما على القارئ إلّا قراءتها والاطّلاع عليها، للتعرف على الصحراء وتاريخها المشرق، وثقافة شعوبها المستمدة من تعاليم الدّين الاسلامي والمدرسة الجزائرية، والتي طالما كان المصغي لهذه اللفظة-الصّحراء- التي لا تتعدى مجموعة من الخيم، التي يجول فيها مجموعة من البشر.

12. قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم:

1- سورة يس، الآيتان 79-80.

2- سورة الحج، الآية 73.

3- سورة إبراهيم، الآية 5.

- المراجع:

4- الصّديق حاج أحمد، رواية مملكة الزّيوان، فضاءات للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن. 2016.

- 5- كتاب اللهجة التواتية الجزائرية. أحمد أبالصافي جعفري، دار الكتاب العربي، 2013.
- 6- معلومات عن زاوية كنتة على موقع: Pronames.org في 26 يونيو 2021.
- 7- التّلي بن الشيخ، منطلقات التفكير في الأدب الشعبي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990.
- 8- محمود شكري الألوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ط3، دار الكتب العلمية.
- 9- بول ريكور، جورج زيناتي، الذاكرة، التاريخ، النسيان، لبنان: دار الكتاب الجديد المتّحدة 2009.
- 10- روبول وليفي، وعمر أوكان، لغة التّربية/ تحليل الخطاب البيداغوجي، بيروت، لبنان: إفريقيا الشرق، 2002.
- 11- ميلان كونديرا، وبدر الدّين عروديكي، فنّ التّرواية، بيروت، لبنان: إفريقيا الشرق، 2001.
- 12- بول ريكور، سعيد الغانمي، ورجيم فلاح، الزمان والسرد/الحبكة والسرد التاريخي، لبنان، لبنان: دار الكتاب الجديد المتّحدة، 2006.

13. قائمة الإحالات:

- 1- الصّدّيق حاج أحمد، رواية مملكة الزّيواني، فضاءات للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ص28.
- 2- المرجع نفسه، ص36.
- 3- المرجع نفسه، ص19.
- 4- الصّدّيق حاج أحمد، رواية مملكة الزّيواني، فضاءات للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ص7.
- 5- كتاب اللهجة التواتية الجزائرية، أحمد أبالصافي جعفري، دار الكتاب العربي، ص59، 2013.
- 6- المرجع نفسه، ص88.
- 7- الصّدّيق حاج أحمد، رواية مملكة الزّيواني، فضاءات للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ص19-20.
- 8- التلي بن الشيخ، منطلقات التفكير في الأدب الشعبي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص155.
- 9- الصّدّيق حاج أحمد، رواية مملكة الزّيواني، فضاءات للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ص28.
- 10- المرجع نفسه، ص30.
- 11- المرجع نفسه، ص60.
- 12- المرجع نفسه، ص22.
- 13- المرجع نفسه، ص24.
- 14- سورة يس، الآيتان 79-80.
- 15- سورة الحج، الآية 73.
- 16- سورة إبراهيم، الآية 5.
- 17- محمود شكري الألوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ط3، دار الكتب العلمية، ص410.
- 18- الصّدّيق حاج أحمد، رواية مملكة الزّيواني، فضاءات للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ص29.
- 19- المرجع نفسه، ص134.
- 20- المرجع نفسه، ص34.
- 21- المرجع نفسه، ص117.
- 22- ريكور وزيناتي، الذاكرة، التاريخ، النسيان، 2009، ص14.
- 23- ريكور وزيناتي، الذاكرة، التاريخ، والنسيان، 2009.
- 24- المرجع نفسه، ص15-16.
- 25- المرجع نفسه، ص27-28.
- 26- ريكور، الغانمي، وفلاح، الزمان والسرد التاريخي، 2006، ص67.
- 27- روبول وليفي، وعمر أوكان، لغة التّربية/ تحليل الخطاب البيداغوجي، 2002، ص41.
- 28- ريكور وزيناتي، الذاكرة، التاريخ، النسيان، 2009، ص210.
- 29- ميلان كونديرا، وبدر الدّين عروديكي، فنّ التّرواية، 2001، ص20.
- 30- ريكور، الغانمي، وفلاح، الزمان والسرد/الحبكة والسرد التاريخي، 2006، ص267.

³¹ - ريكور وزيناتي، الذّآكرة، التاريخ، التّسيان، 2009، ص189.

³² - المرجع نفسه، ص56.